كتب قرأتها :

فى غربال ميخائيل نعيمة

للاستاذ حبيب الزحلاوى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

ويقول : « لكل ناقد موازينه ومقاييسه ، وهذه الموازين والمقاييس ليست مسجلة لا فى السماء ولا على الأرض ، ولا قوة تدعمها وتظهرها قيّمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه ، وقوة الناقد هى فيما يبطن به سطوره من الإخلاص فى النية ، والمحبة للمهنة ، والغيرة على موضوعه ، ودقة الذوق ، ورقة الشعور ، وتيقظ الفكر ، وما أوتيه بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله لعقل القارىء وقلبه ...

« لا يكون الناقد ناقداً إذا تجرد من خلة « قوة التمييز الفطرية » تلك القوة التى تبتدع لنفسها مقاييس وأوزاناً ولا تبتدعها المقاييس والأوزان ، فالناقد الذى ينقد « حسب القواعد » التى وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا منقوده ولا الأدب بشىء .

« ... نحن فى حاجة إلى الناقدين لأن أذواق السواد الأعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من ثدى أمسنا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ، فالناقد الذى يقدر أن ينتشلنا من خرافات أمسنا وترهات يومنا ، والذى يضع لنا اليوم محجة لندركها فى الغد ، هو الرائد الذى سنتبعه والحادى الذى سنسير على حدوه .

ويقول : « إذا لم يكن للناقد من فضل سوى رد الأمور إلى مصادرها ، وتسميتها بأسمائها لكفاه ذلك ثواباً . إلا أن فضل الناقد لا ينحصر فى التمحيص والتثمين والترتيب ، فهو مبدع ومولد ومرشد ، مثلما هو ممحّص ومثمّن ومرتب .

« هو مبدع عند ما يرفع النقاب فى أثر ينقده عن جوهر لم يهتد إليه أحد ، حتى صاحب الأثر نفسه .

هو مولد ، لأنه فيما ينقد ليس فى الواقع إلا كاشفاً نفسه .

وهو مرشد ، لأنه كثيراً ما يردمغروراً إلى صوابه ؛ أويهدى شاعراً ضالا إلى سبيله .

« رب ناقد لم ينظم فى حياته بيتاً ، ولا عرف ما فى النظم من مشقة الأوزان والقوافى ؛ ولا فى لذة الفوز بها ؛ غير أن ذلك لا يعوقه عن إدراك ما فى الإفصاح عن عوامل النفس من لذة روحانية ، ولا يعميه عن تموجات الألوان فى الرسوم الكلامية ولا يصمّه عن رنة الألحان فى مقاطع الألفاظ والعبارات .

والناقد فى إمكانه الدخول إلى مستودع روح الشاعر ، وتفقد مخبئاته إلى أن تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت فى الشاعر بتلك القصيدة ؛ فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه .

« إن حظ الناقدين من دهرهم قليل ، فهم لا يُرضون فريقاً من الناس إلا بإغضاب فريق آخر ، غير أن القوى بينهم — والقوى من أخلص النية — لا يحفل بمن يرضى وبمن يغضب ، لأنه يخدم غاية أكبر من رضاء الناس وسخطهم ، ويتمم وظيفة هى من أهم وظائف الحياة ... » ويضيف الأستاذ العقاد على هذ التعريف الشامل للناقد فيقول : « عمل الناقد تصحيح كثير من مقاييس الأدب ، وإن من يصحح مقياساً للأدب فقد يصحح مقياساً للحياة » .

* * *

« ... كلنا يتكلم عن الشعر ؛ بعضنا يؤلهه ، والآخر يعشقه والثالث يقرضه ، والرابع يقتات ويتنفس به ، هذا يشحذ ذاكرته بالمعلقات والموشحات والخاليات واللاميات ، يرددها فى وحدته ويتلوها على مسمع أصحابه ، وذاك يكتب القصيدة بعد القصيدة يستعد لأن ينشر درر أفكاره فى « ديوان » ... فلا بدع فنحن من سلالة قوم هم ، إذا مات منهم شاعر قام شاعر ... نحفل بالشعر لأنه لغة النفس وترجمان عواطفنا وأفكارنا ... » والشاعر هو نبى وفيلسوف وموسيقى وكاهن .

نبى : لأنه يرى بعينه الروحية مالا يراه كل البشر .

ومصور : لأنه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه فى قوالب جميلة من صور الكلام .

وموسيقى : لأنه يسمع أصواتاً متوازنة حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجعة .

وكاهن : لأنه يخدم إلهاً هو الحقيقة والجمال .

... إن روح الشاعر تسمع دقات أنباض الحياة ، وقلبه يردد صداها ، ولسانه يتكلم « بفضلة قلبه » .

« ليس الشاعر من يخلق عواطف ويولد أفكاراً ، إنما الشاعر

من يمد أصابع وحيه إلى أغشية قلوبكم وأفكاركم ، فيرفع جانباً منها ، ويحول كل أبصاركم إلى ما انطوى تحتها فتبصرون هناك عواطف وتعثرون على أفكار ... هي أفكاركم ... ثم يتركك وإياها تستجلون ألوانها ، وتتفحصون معانيها ... عندها تستفيق أنفسنا إذا شعرت برعشة الحياة في داخلها ، لأن الحياة فينا لا خارجا عنا ، وما التأثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة أو الحياة الخارجية إلا منبه لما كمن في داخلنا من العواطف والأفكار »

« الشاعر ترجمان النفس والشعر لغتها ... خيال الشاعر حقيقته ... الشاعر الذي يستحق أن يكون شاعراً لا يكتب ولا يصف إلا ما تراه عينه الروحية ، ويختمر به قلبه حتى يصبح حقيقة راهنة في حياته ولو كانت عينه المادية قاصرة عن رؤيته .

... بين شعرائنا المعاصرين الذين في شعرهم مدى ، أي قوى التفكير والعاطفة والبيان ، شاعر أقل ما يقال فيه إن لشاعريته وجهاً يميزها عن كل شاعرية ، ولألحانه رنة تعرف بها بين سائر الألحان ، وفي كل ما ينظمه نكهة تختلف عن كل نكهة . وبعبارة أخرى ، إن في شعره شخصية لا تندغم في شخصية أحد من الشعراء ...

* * *

ماهو الشعر ؟ هو نسمة الحياة . والذي أعنيه بنسمة الحياة ، ليس إلا انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظوم . والشعر الذي ينزل بفكري إلى أغوار تحتها أغوار ، ويعلو به إلى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتتح لخيالي آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفتي مدى يجرها إلى أمداء ، هو الشعر الذي تستأنس به روحي ، وتتفتح له براعيم الحياة في داخلي . ولابد للشعر من عاطفة وخيال يجعل من الشعر والموسيقى توأمين

ما هي الغاية من الشعر ؟ قوم يقولون إن غاية الشعر محصورة فيه ولا يجب أن تتعداه « الفن لأجل الفن » وآخرون يقولون إن الشعر يجب أن يكون خادما لحاجات الإنسانية ، وإنه زخرفة لا ثمن لها إذا قصر عن هذه المهمة . ولهذين المذهبين تاريخ طويل ... إنما نكتفي أن نقول إن الشاعر لا يجب أن يكون عبد زمانه ورهين إرادة قومه . ولكننا نعتقد أن الشاعر لا يجب أن يطبق عينيه ويصم أذنيه عن حاجات الحياة وينظم ما توحيه إليه نفسه فقط ، سواء كان لخير العالم أو لويله ، وما دام الشاعر يستمد غذاء لقريحته من الحياة ، فهو لا يقدر إلا أن يعكس أشعة تلك الحياة في أشعاره ... لذلك يقال إن الشاعر ابن زمانه .

يطول بي القول إذا أشرت إشارات عابرة ، أو وقفت هنيهة عند كل ما يستوجب الوقوف حياله من مواضيع هذا الكتاب الذي لا تبلى جدته ، ولا تنفصل ألوانه . ويكفي أن أشير إلى موضوعات لامناص للأديب من قراءتها وإملاء الذهن منها ، كموضوع « محور الأدب » و « الرواية التمثيلية العربية » و « المقاييس الأدبية » و « الحباحب » و « تقيق الضفادع » و « الزحافات والعلل » فكلها موضوعات تشخص الأدواء ، وتداوي العلل ، وتهول بالبضع والشرط على الضعفاء من الشعراء والكتاب .

من أوجه خصائص الأستاذ الكبير ميخائيل نعيمة أنه لم يكن في « غربال » الخالد موضوعياً بحتاً ولا ذاتياً بحتاً ، ولا متشرعا يسن السنن ويقنن القوانين ، بل كان « معلما » وقف فوق المنبر وقد أخذته الغيرة على الأدب ، وثارت نخوته ، نخوة الخائف على نهضة العصر أن تلوث في باكورة انبعاثها ، فراح يصرخ صرخات الصدق والإخلاص ، ويشرح مؤلفات الأدباء والشعراء المعاصرين ، على طريقة المثال لا الحصر ، ولم يكن « مقلدا قط » بل كان « نعيميا » أي نسيج وحده في القوة والتميز والابتداع والخلق والرفق والشفقة ، وما كان قط مموهاً أو مماثلا ، لأن المموه المماثل ليس بأديب ولا بمخلص للأدب ، ولو كان من كبار الكتاب والشعراء والمؤلفين .

حبيب الزحلاوي

الدقة ، والسرعة ، والنظافة

والذوق ، واعتدال الأسعار...

كل هذا تجدونه في

مطبعة الرسالة